الفصل الرابـــع

وقفـــات

مـــع نتاجـــه الأدبي

obeikandl.com

obeikandl.com

الخطابـــة

الخطابة فن أصيل عند العرب أصالة الفصاحة والبيان عندهم، وهي صنو للمناظرات والمنافرات التي سلف الحديث عنها قبل قليل، وكانت جزءاً من حياتهم قبل الإسلام وبعده، تعددت مناسباتها، وتنوعت أغراضها وموضوعاته، فالخطابة لازمة لهم في المفاخرات والمنافرات، وفي حياتهم الاجتماعية من نصح وإرشاد وإصهار وزواج، وفي حياتهم السياسية على الحرب وتحسين لها إذا ما دعت إليها الضرورة، ومن ذم وتحذير منها إلى غير ذلك مما كانت تقتضيه طبيعة البيئة والزمان.

ولكل أمة من الأمم خطباؤها، وفي كل لغة من اللغات التراث نفسه خطب مأثورة مذكورة، فلليونان خطباؤهم، غير أن العرب قد امتازوا على هؤلاء جميعاً بالارتجال ، فالعربي يرتجل وكأنه ملهم دون معاناة ولا مكابدة ولا إحالة فكر ولا استعانة [1].

وكان الشاعر في الجاهلية يُقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيرافق شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[2].

---

(١) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية للدكتور مصطفى الشكعة، ص٤١ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٣٩ .

فالخطيب إذاً قمة في قومه، وسيد في رهطه، ومصدر فخر لنفسه ولقبيلته، ولطالما افتخر الخطباء بموهبتهم وقدرتهم على القول، يقول ابن وابصة في مقام قام فيه مع غيره من الخطباء:

يا أيها المتحلي غير شيمته
ومن سجيته الإكثار والملق
اعمد إلى القصد فيما أنت راكبه
إن التخلق يأتي دونه الخلق
صدت هنيدة لما جئت زائرها
عني بمطروفة إنسانها غرق
وراعها الشيب في رأسي فقلت لها
كذلك يصفر بعد الخضرة الورق
بل موقف مثل حد السيف قمت به
أحمي الذمار وترميني به الحدق
فما زللت ولا ألفيت ذا خطل
إذا الرجال على أمثالها زلقوا

فلما ظهر الإسلام وتوطدت أركانه وامتد سلطانه قوي شأن الخطابة لاعتماد الأمراء والقواد إياها في الحض على الجهاد، وقمع الفتن، ونشر الدعوة في الملأ. وقد عرف خطباء صدر الإسلام عدداً ليس بقليل يكفي للتمثيل أن نذكر منهم الإمام علي بن أبي طالب، وزياد بن أبي سفيان، وقتيبة ابن مسلم، وعمرو بن سعيد، والحجاج بن يوسف، وقطري بن الفجاءة وسواهم.

ذلك هو الطابع الذي عرفت به خطابة ذلك العهد ثم عقب هذا العهد تحول تدريجي في الأسلوب الخطابي فلم يكد ينصرم القرن الثالث الهجري حتى لبست الخطابة ثوب السجع وانحصرت في المساجد تلقى أيام الجمع والمواسم عظات على الناس تحثهم على التقوى أو تدعوهم إلى الجهاد.

ولم تخرج الخطابة العربية في الأجيال المتتالية عن هذا الأسلوب على أنها أخذت مع الزمن تتدهور، فإذا هي في أواخر القرن الثاني عشر وأوئل القرن الثالث عشر أصداء لأقوال السابقين، وتقصر عن مداها في القوة وحسن الأداء.

ثم دبت حياة جديدة في الخطابة فانتعشت إذ لم تعد محصورة في المساجد، بل اتصلت بكل نواحي المجتمع. فتناولت شتى الشؤون العمرانية والفكرية، وهكذا فتحت أمامها آفاقاً جديدة لم تعرفها سابقاً، فظهر من رجال المنابر في هذا العصر عدد كبير ممن تركوا آثاراً بينة في الأدب الحديث أمثال: عبدالله النديم وأديب إسحاق ونقولا فياض وغيرهم الكثير» [1].

أما في الجزيرة العربية فقد بقيت على ذلك الحال حتى قيام المجدد الأول في العصر الحديث لحياة العرب والمسلمين الإمام محمد بن عبدالوهاب الذي نفخ فيها من روحه ونفخها بإخلاصه فسارت الحياة في هيكلها اللفظي، حتى أشرق منها الجبين ولان الأديم بلا ضعف ولا ارتخاء؛ فاستأنفت مسيرتها على درب الكفاح والنضال طليعة للفنون الأدبية وسلاحاً ماضياً لأرباب الدعوة والإصلاح الذين اتخذوا منها سلاحاً آخر لإيضاح الهدف وتحديد الاتجاه.

وذلك سر عناية الإمام بالخطابة ونفض ما عليها من غبار تراكم عليها عبر عصور الانحطاط حتى عادت إلى الشباب بعد الشيخوخة والهرم.

ذلك أن التجديد قد تناول الخطابة من جميع جوانب اللفظ والتأليف والموضوع، وخطب الإمام مطبوعة وعددها (٧٦) خطبة، وتقع في (٩٢) صفحة من القطع المتوسط ومثالها قوله (الخطب المنبرية - ص٥٢):

«فيا أيها الناس، اتقوا الله تعالى، وإياكم والتغافل والصدود، فإن أمامكم القبر فاحذروا ضغطته ووحشته، وإن وراء ذلك ما هو أشد منه، يوم يشيب من هوله المولود. ألا وإن وراء ذلك ما هو أعظم منه، دار معدوم رجاؤها، محتوم بلاؤها، موحشة مسالكها، مظلمة مهالكها، مخلد أسيرها، مؤبد سعيرها، عال زفيرها (طعام أهلها الزقوم)، وشرابهم الحميم، وعذابهم أبداً فيها مقيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم. لهم فيها بالويل ضجيج، وللهبها فيهم أجيج. أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم من أسرها فكاك. قد شدت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ذل المعاصي، ينادون من فجاجها وشعابها بُكياً من ترداف عذابها: يا مالك، قد أثقلنا الحديد. يا مالك، قد نضجت منا الجلود. يا مالك، قد تفلذت منا الكبود. يا مالك، العدم خير من هذا الوجود. يا مالك، أخرجنا منها فإنا لا نعود. فيجيبهم بعد زمان: اخسؤوا فيها ولابد من الخلود».

ولقد حلت خطب الإمام محل المدونات القديمة، فتناقلها أئمة المساجد وخطب بها منهم الخاصة والعامة في المدن والقرى دون أن يخرجوا عليها أو يستبدلوا بها سواها.

وفي (الحجاز) عادوا إلى المدونات القديمة من جديد، حتى منتصف هذا القرن تقريباً.

وبعد منتصف هذا القرن ظهر أول مجدد في الخطابة بعد الإمام وهو الشيخ عبدالرحمن بن سعدي أحد مشاهير علماء هذا العصر وصاحب المؤلفات العديدة في الإسلام التي منها تفسير القرآن، نهج فيه منهجاً جديداً في التفسير، ومنها ديوان خطب عالج فيها مشكلات العصر.

ومن طلائع المجددين في الخطابة عبدالله عبدالغني خياط والشيخ عبدالعزيز عبدالله بن حسن إمام الحرم المكي وإمام المسلمين يوم الحج وله ديوان خطب قيم.

ولقد كان لخطب هؤلاء المجددين أثر ظاهر في أسلوب أبناء العصر حتى غير الخطباء منهم.

وفي هذه الأيام نزع الخطباء عن المدونات وصاروا ينشئون خطبهم بأنفسهم، ويعالجون فيها مشكلات الساعة، وهذا ما لابد منه في الخطابة، غير أن جلهم صاروا إلى أمرين لا يحمدان لهم[1]:

١- أنهم يدونون خطبهم ويقرؤونها من على المنابر من الورق، وفي هذا ما يجعل التأثير في السامع أقل.

٢- التسابق في الطول، وهذا خلاف ما ورد في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قال: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة فقهه». رواه مسلم.

---

(١) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة لإيناس المقدسي (بتصرف)، ص ٣٩٦ وما بعدها.

أما عائض القرني الذي يعتبر أحد رواد الخطابة فقد وهب هذا الفن موهبة خاصة به، فهو يجمع بين الأناقة والسهولة، جمعاً طبعه بطابع خاص عرف به، وشهد له بقوته، بل إنه وصل به درجة الإبداع والتميز.

ومنطقٌ كضياء الشمس تحسبه

من حسنه سحر هاروت وماروت

يدب في الجسم مثل البرء لو نظمت

ألفاظه قلت هذا عقد ياقوت

وإليك تحليلاً موجزاً عن فن الخطابة عند الشيخ عائض القرني:

علاقته بالخطابة: عاش عائض القرني فترة طويلة في كنف المنبر تقلبت عليه أطوار حتى أصبح في نهايتها علَماً من أعلام الكلمة الصادقة والأدب الرفيع، ويمكن تقسيم هذه الفترة من حياته إلى ثلاثة أطوار:

الطور الأول: وهو طور الاستعداد والتهيؤ، أو مرحلة تجربة النفس، وتشتمل السنوات العشر الأولى من إقامته في مدينة أبها.

الطور الثاني: وهو طور الإشراق والازدهار والذي لم يدم طويلاً حيث انتهى بانتقاله من أبها عام ١٤١٣هـ.

والجدير بالذكر أن الشيخ لم يقض هذه السنين مستقراً في مكان واحد. بل إن له في هذا باعاً طويلاً كما أشار إلى ذلك في المقامة الدعوية بقوله (مقامات القرني ص ١٧٠):

«ولي في الدعوة انتقال وارتحال، والفضل لذي الجلال، وليس لي من الفضل فلس ولا مثقال. وكانت البداية في أبها، وهي من الشمس أبهى، ومن

الزلال أشهى، وأهلها من أرق الناس قلوباً، وأقلهم عيوباً، تغلب عليهم الاستجابة، والذكاء والنجابة.

هينون لينون أيسار بنو يسر

صيد بهاليل حفاظون للجار

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم

مثل النجوم التي يسري بها الساري

ثم زرت مكة، فعرفت من الحب يقينه وشكه، فصرت لأهلها بالمودة ضامناً، وصار الأنس في قلبي كامناً، وآمن فؤادي ومن دخلها كان آمناً.

فلو أن الثرى يقبل لقبلت، لكنني لما رأيتها كبرت وهللت، وحول البيت هرولت.

كبرت عند ديارهم لما بدت

منها الشموس وليس فيها المشرق

وعجبت من بلد مكارم أهلها

فيها السحاب صخورها لا تورق

ثم سرت إلى الرياض، وأنا من الهم خالي الوفاض، فلاحت لنا الأعلام النجدية، والأماني الوردية، ووصلنا أرض التوحيد، وبلاد التجديد، فوجدنا العلماء، والكرماء، والحلماء.

---

(١) الأدب الحديث للدكتور محمد بن سعد بن حسين، ١٢٩/٢ وما بعدها.

لو كـان يقـعـد فـوق الشـمس من كـرم

قـوم بآبائـهم أومـجـدهـم قـعـدوا

مـحـسـدون على مـا كـان من نعـم

لا يـنـزع الـلـه منـهـم مـالـه حـسـدوا

ثم حملنا الشوق إلى طيبة، وهي أمنيتنا في الحضور والغيبة، وهي أرض الجلال والهيبة، فيا قلب والله لا ألومك في هواك، ولا أردك عن مناك، لأن أحب الناس يرقد هناك. أليس في هذه الروابي مشى محمد صلى الله عليه وسلم، وصلى وتعبد، وقام وتهجد.

بـنـفـسـي تـلـك الأرض مـا أحـسـن الربـا

ومـا أحـسـن المصـطـاف والمتـربـعـا

كـتـبـنا عليـهـا بـالدمـوع صـحـائفـاً

هي الدار صـارت للمـحـبين مـضـجـعـا

ثم رحلنا إلى جدة، ولنا عنها مدة، فلما وصلناها ذهب كل عناء وشدة، وقد أخذنا من الحب عدة، وحملنا في القلوب مودة. فلقينا بها شباباً كالسحاب، برؤيتهم تم الأنس وطاب، وذهب الهم والأوصاب، أخلاقهم أرق من النسيم، وعشرتهم أجمل من الدر النظيم.

هـم القـوم إن قـالوا أصـابوا وإن دعـوا

أجـابـوا وإن أعـطـوا أطـابـوا وأجـزلـوا

بـهـالـيـل في الإسـلام سـادوا ولـم يكـن

لأولـهـم فـي الجـاهـلـيـة أول

ثم جاءتنا برقية، فسافرنا إلى الشرقية، وما أبقى لنا الشوق بقية، فقابلونا بالحفاوة والإكرام، والحب والاحترام، ووجدنا رقة الخضارة، والبشاشة والنضارة، فعجزنا عن الشكر، وهام بنا إليهم الذكر، وما نسيهم الفكر:

لله تلك الدار أي محلة
للجود والإفضال والتكريم
هم كالشموس مهابة وجلالة
أخلاقهم في الحسن كالتسنيم

ثم قلت لصاحبي: مالك في الجدال خصيم، تقول القيصومة، وأنا أقول القصيم، فلما وصلنا تلك الديار، وعانقنا الأخيار، وجدنا أهل الديانة، والأمانة، والصيانة. عفاف في طهر، كأنهم نجوم زهر، أشاد بمكارمهم الدهر:

قل للرياح إذا هبت غواديها
حي القصيم وعانق كل من فيها
واكتب على أرضهم بالحب ملحمة
أرض الديانة قاصيها ودانيها

ثم دخلنا حائل، والقلب إليها مائل، فلقينا أبناء المكارم، وعانقنا أحفاد حاتم، فرجح حبهم في الميزان، وحدثناهم في جامع برزان، واعتذرت من إبطائي، ثم ألقيت قصيدة نادي الطائي:

لا عـيـب فـيـهـم سـوى أن المقـيـم بـهـم
يـسـلـو عن الأهـل بـل كـل الأحـبـاء
في حـائـل قـد بـنـا الإكـرام مـنـزلـه
أبـوهـمـو فـي المعـالـي حـاتم الـطائـي

ولما هبطنا الباحة، وجدنا الأنس والراحة، وقد عانق القلب أفراحه، ونسي أتراحه، فغمد حسام الإسلام غامد، كم بها من عابد، وزاهد، وساجد. وزهرة المكارم زهران، صرت في ليلي عندهم من الفرح سهران، سيرتهم أطيب سيرة، وسريرتهم أحسن سريرة؛ لأنهم أبناء أبي هريرة:

في البـاحـة الغـراء كـان لقـاؤنـا
مـا أحـسـن اللقـيـا بـلا مـيـعـاد
شـيـدت بـهـا فـي أوطانـهـا
تـلـقـاك بـالأجـواد والـعـبـاد

وقد هبطنا تهامة، فلا ملل ولا سآمة، وأقمنا أحسن إقامة، فوجدت الجود خلفي وأمامي، ولمست الإكرام ورائي وقدامي، وكفاهم أن الرسول تهامي، تفيض وجوههم مما عرفوا من الحق، وتشرق وجوههم مما حملوا من الصدق:

أتـهـمـت في طـلـب المحـبـة والـهـوى
يـا بـن المحـبـة والـوداد تـهـامـي
لما أتـيـتـهـمـوا نسـيـت سـواهـمـو
ضـيـعـت قـبـل وصـولـهـم أيامي

obeikandl.com

ولما أتينا جيزان، والجود قد زان، نسينا من السرور الأهل والجيران، ووجدنا الحلقات الشرعية، والآثار القرعاوية، والجهود الدعوية، والكل منا يلاحظ، تلاميذ الحكمي حافظ، حيث ولدت العبقرية، ولازالت القرائح غضة طرية، ولمسنا العزم والهمم، ووجدنا الجود والكرم:

جـــــــــازان إنـي مـن هـواك لـشـــــاك

أشـــجـيـــتـني وأنا الـذي أشـــــجـــــاك

يـافـــــتـنـة الـنـادي طـربـت وعـــــــادني

مـــا يـشـــبـــــه الأحـــــلام مـن ذكـــراك

الطور الثالث: وقد عاش هذا الطور بمثابة الخبير أو المستشار في هذا الفن، فهو طور المنهجية وتقديم الدراسات والخبرات.

وفي طليعة أعماله هذه الرسالة التي أسماها (إلى الخطباء) ثم رسالة أخرى بعنوان (كيف تكون خطيباً..؟). إضافة إلى مجموعة مقالات موزعة في كتابه حدائق ذات بهجة، وكتابه هكذا حدثنا الزمان، وهي خلاصة المعارف والخبرات التي صنفتها تجاربه الشخصية على المنابر.

يقول في رسالته إلى الخطباء (مملكة البيان - ص٧):

«أنا أعلم أني لا زلت شاباً والكثير يكبرني سناً ويفوقني علماً ونبلا وفضلاً، لكنني قرأت كتباً ورسائل في فن الخطابة لمسلمين وغير مسلمين، وسوف أذكر بعضها في هذا البحث.

وعشت زمناً أحاول أن أطبق ما أقرأ من فن الأداء والإلقاء والأسلوب والعرض، وأصيب حيناً وأخطئ أحياناً.

فأقمت في مدن كثيرة فلم أجد ذلكم الخطيب الذي يخلب الألباب ويهز القلوب ويملك المشاعر.

نعم ! هناك علماء وقضاة ودعاة، ولكن لم ألق خطباء بمعنى هذه الكلمة إلا الواحد أو الاثنين أو الثلاثة مع ملاحظات.

من هو الخطيب الذي يمكن أن يسكب في قلوبنا الحياة والتأثير والإقناع؟

من هو الخطيب الذي نسلم له نفوسنا ليصقلها ويطوعها ويهديها سواء السبيل؟

من هو هذا الخطيب الذي يصل بصوته إلى ضمائرنا فيبحث منها الخواطر الخاطئة والأفكار المغلوطة، ويصل بحجته إلى قلوبنا فيقتلع منها هواجس السوء ووساوس الشيطان؟!

لقد قرأت عن عشرات الخطباء المسلمين وغير المسلمين، شرقيين وغربيين، تركوا في أممهم أثراً بيناً بخطبهم ومواعظهم، ولكن هل تحس منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً؟

كل هذا الخلق عزا وأنا

منهم فاترك تفاصيل الجمل

رأيت على المنابر من يقرأ علينا صحفاً اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً.

يسردها علينا سرداً بلا تأثير ولا جاذبية، ولا أداء ولا حرارة، ولا ظل ولا طل.

ورأيت من يغطي وجهه بأوراقه عند الإلقاء، فهو محجوب عن الناس طيلة الخطبة، يريد أن ينتهي من هذه الأوراق ليلقي عن نفسه تبعة الخطبة.

وهناك من يخطب فيتلعثم من شدة الخوف، ويرتبك من الخجل والوجل، يكاد إذا صعد المنبر أن يولي فراراً ويمتلئ رعباً.

نعم.. العلم شيء والخطابة شيء آخر.

أجل.. التقوى والفضل والمكانة محاسن، والخطابة حسنة أخرى.

في هؤلاء من يحسن الإلقاء والأداء، ولكنه ضحل المادة بخيل في عطائه ومحصوله، فكأنه ما قال شيئاً.

وفيهم صاحب الحجة والبرهان، الحافظ المطلع على كنوز الميراث وذخائر العلوم، ولكنه بارد وفي صوته خيوط النعاس ومقدمات الكرى.

وأظن الخطابة ليست جمعاً لأطراف الموضوع بلا فصاحة وأداء وإلقاء وتأثير.

وليست صوتاً صارخاً صاخباً بلا حجة وإقناع وجاذبية.

إن الخطابة قلب شجاع، ولسان فصيح، ومادة حية، وذاكرة واعية، وبديهة لماحة، وإشارة موحية، ونبرة فخمة، وأداء خلاب، وحجة بالغة، ونفس متوثبة مجنحة.

وهي استيلاء على المشاعر، وامتلاك العواطف، وقدرة على جذب النفوس.

وفكر لا اعوجاج فيه، ونفس صحيحة من الأدواء، وعقل مسدد، ولسان سليم من عيوب الأداء.

وشخصية قديرة متألقة وبرهان، يقذف به على الباطل والزيف فيدمغه.

نحن بحاجة إلى مران طويل على مخاطبة الناس، ودربة واسعة على الإلقاء والتأثير، تقوم بهذا مؤسسات ومدراس وجامعات تعنى بهذه الجوانب عناية فائقة.

إن الجموع فقيرة إلى خطيب مفوه تصل كلماته إلى الأعماق، ولكل نبأ مستقر.

وإن دعاة الفضيلة هم بحاجة ماسة إلى معرفة الطرق إلى القلوب، والسبل إلى النفوس، بقراءة مكامن التأثير والتأثر، والاطلاع على أسرار الجذب والإقناع.

إن الخطبة جمعية من المواهب والقدرات تجتمع في شخص واحد، يملك ناصية البيان وزمام الفصاحة والتميز في الإيقاع».

obeikandl.com

نموذج لخطب
الشيخ عـائض القرني

إلى مصر المسلمة:

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه ربه هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

أيها الناس.. إن أعظم معجزة قدمها الإسلام للعالم أن جمع بين هذه الشعوب المسلمة تحت مظلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإن أعظم نفع قدمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ للدنيا أن آخى بين القلوب وأن ألف بين الأرواح ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد ينسى بعض السفهاء هذا التأليف و ينسون هذا الإخاء لجهلهم بهذا الدين العظيم.

و قد تشكى إليَّ بعض المسلمين من أهل مصر ما يعانونه من بعض هؤلاء السفهاء.

فأردت أن أبين له.. ما هي مصر؟ و ما هي فضائلها؟ ومن هم المصريون؟

إن مدحي لمصر و ثنائي على مصر كمدح الأعرابي الذي كان يمشي في الظلام الدامس.. و فجأة طلع عليه القمر.. فأخذ الأعرابي يناشد القمر و يذكره.

obeikandl.com

و يقول: يا قمر، إن قلت: جملك الله فقد جملك.. وإن قلت: رفعك الله فقد رفعك !

ومن أين أبدأ يا مصر؟ و كيف أتحدث؟ و بأي لسان أنطق؟

إنني سوف أدخل التاريخ من أوسع أبوابه إذا ذكرت مصر.. و إن الدنيا سوف تصفق لي و يصفق لي الدهر إذا ذكرت مصر.

مصر المسلمة التي شكرت ربها و سجدت لمولاها.

مصر التي قدمت قلوبها طاعة لربها، وجرت دماؤها بمحبة نبيها ﷺ.

إن لك يا مصر في عالم البطولة قصة ! و في دنيا التضحيات مكاناً! و في مسار العبقرية لا ينسى أبداً!

دخلت مصر في الإسلام طوعاً.. ودخل الإسلام قلب مصر حباً..و أحب المصريون ربهم تبارك و تعالى، فذادوا عن دينه و حموا شرعه و نشروا منهجه.

و أحب المصريون محمداً (كأشد ما يحب التلاميذ شيخهم.. و الطلاب أستاذهم.. و الأبطال قائدهم).

معذرة يا مصر ! إن بعض السفهاء لا يعرفون هذه الوحدة التي ألَّفها محمد ﷺ.

إنهم لم يدخلوا جامعته الكبرى التي جعل أعضاءها كل خير في الدهر.. وكل إنسان في المعمورة.

معذرة يا مصر ! يا أرض الأزهر الوضاء.. ويا أرض البطولة والفداء.. ويا أرض العبقرية والذكاء.

أنا أعلم أن في الشعوب فسقة ومجرمين لا يستحقون الثناء، ولا أستثني شعباً، ولكن تبقى الكثرة الكاثرة من المؤمنين المصلين العابدين الصالحين الطاهرين.. فحق عليَّ أن أشكر أتباعه ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها.. في مصر وفي غير مصر... هنا وهناك.. اليوم وغداً وأمس.

أي جامعة في الدنيا تحمل الثقافة ليس فيها مصر.. وأي مؤسسة علمية في المعمورة ليس فيها مصر.. وأي مسار ثقافي لم يشارك فيه المصريون بعقولهم وأبصارهم وبصائرهم؟!

أنزلت سفينة الفضاء الأمريكية على سطح القمر بقدرة الواحد الأحد ثم بعقل مصري.

بهاليل في الإسلام شادوا ولم
يكن لأولهم في الجاهلية أول

إنني لا أنتظر شكراً من أحد إلا من الله على هذا الكلام، و لكن أريد أن أرد على بعض الأقوام الذين أصابتهم لوثة الوطنية..و لوثة العرق.. و لوثة البلد.. و لوثة الدم.. و لوثة اللعنة المزعومة.

أصاب المسلمين في عهد عمر رضي الله عنه و أرضاه قحطاً أكل الأخضر و اليابس (عام الرمادة).

فقال عمر في تلك الأيام: و الله لا آكل سمناً و لا سميناً حتى يكشف الله الغمة عن المسلمين.. و بقي مهموماً يتأوه.

فتذكر عمر أن له في مصر إخواناً في الله.. و إن مصر بلد معطاء سوف يدفع الغالي و الرخيص لإنقاذ العاصمة الإسلامية.

و كان والي مصر عمرو بن العاص الداهية العملاق، فكتب له عمر رسالة نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص.. أما بعد: فواغوثاه واغوثاه واغوثاه.. و السلام !!».

فأخذها عمرو بن العاص و جمع المصريين ليقرأ الرسالة الملتهبة المحترقة الباكية المؤثرة أمامهم.

و قال: و الله لأرسلن لك قافلة من الطعام أولها عندك في المدينة و أخرها عندي في مصر.

فجاد المصريون بأموالهم كما يجود الصادقون مع ربهم، و بذلوا الطعام وحملوا الجمال، و ذهبت القافلة تزحف كالسيل و تسير كالليل.. تحمل النماء و الحياة و الخير و الرزق و العطاء لعاصمة الإسلام.

فحفظ المسلمون لأهل مصر المنقبة العظيمة.

دخل التتار أرض الإسلام و دياره فدمروه..و هدموا المساجد.. و مزقوا المصاحف.. و ذبحوا الشيوخ .. و قتلوا الأطفال .. وعبثوا بالأغراض.. بل دمروا عاصمة الدنيا بغداد.. وزحفوا إلى مصر ليحتلوها .

فخرج المصريون وراء الملك المسلم (قطز) الذي يحمل لافتة (لا إله الله محمد رسول الله).

فلما كانت المعركة (عين جالوت).. والذي حث على القتال وهو العالم بل سلطان العلماء: العز بن عبد السلام.. التقى التتار الأمة البربرية البشعة التي لم يكن في تاريخ الإنسان أمة أشرس ولا أقوى ولا أبشع منها.. التقوا بالمصريين المسلمين.

فلما حضرت المعركة والتقى الجمعان قام قطز فألقى لأمته من على رأسه، وأخذ يهتف في المعركة «واإسلاماه.. واإسلاماه.. واإسلاماه» فقدموا المهج رخيصة، وسكبوا الدماء هادرة معطاءة طاهرة.. وانتصر الإسلام، وسحق التتار ومنوا بهزيمة لم يسمع بمثلها في التاريخ.

إنها مصر.. التي أنجبت الأبطال.. ولا زالت.

ولمصر في قلب الزمان رسالة
مكتوبة يصغي لها الأحياء
من مصر تبدأ قصة في طيبها
تروي الحوادث والعلا سيناء
هي مصر إن أنشدتها متشوقاً
طرب الزمان وغنت الورقاء

إن هذه البلاد بلاد محمد ﷺ، ترحب بكل مسلم يحمل هوية لا إله الا الله محمد رسول الله، وإنه شرف لنا أن نستقبل هؤلاء الضيوف من كل أصقاع الأرض في العالم الإسلامي ما دام أنهم يحبون الله ويحبون رسوله ويحترمون الإسلام.. فإنا ننزلهم على الجفون، ونضعهم على المقل، وإن واجب الضيافة علينا أن نهش ونبش لهذا العطاء الوافر، ولهذا الوافد الكريم الذي أتى ليبني ويثقف ويربي ويعلم.

وأما الذين يمكرون على الإسلام، فلو كانوا إخواننا في بيوتنا لألقمناهم حجراً.. وحق علينا أن نملأ أفواههم تراباً.. من أي بقعة كانوا أو من أي شعب أو من أي جنس.

إن القضية هي قضية الإسلام، وقضية لا إله الا الله محمد رسول الله.

إن الشعوبية الجديدة التي توجد في العالم الإسلامي لتمزقه أكثر من هذا التمزيق لهي عقيدة آثمة فاشلة.

قال ﷺ: «**كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى**»، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

فكما أن ربنا واحد ورسالتنا واحدة، وقبلتنا واحدة، فلا مكان للدماء.. ولا للألوان.. ولا للألسن.. ولا للوطنية.. ولا للتراب..

تلكم هي مصر المسلمة التي أنبتت العقليات والعبقريات والجامعات والبطولات، وقدمت للعالم العلماء، وقدمت الشباب الصالح البناء المثمر.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

obeikandl.com

الرسالــة

(ترسلــه الخطابي)

قديماً كان الباحثون في البلاغة قلما يميزون بين الخطابة والتّرسل. وعليه يقول أبو هلال العسكري: «الرسائل والخطب متشاكلان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية. وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل، والفرق بينهما أن الخطبة يشافه بها بخلاف الرسالة، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة»[1].

وبرغم ما يذهب إليه العسكري من تشاكل الرسالة والخطبة، فإن للخطابة خصائص تعرف بها، من ذلك أنها ترمي إلى ما يثير الشعور ويحمل على الإقناع؛ ولذا تكثر فيها علامات المخاطبة والتعجب والاستفهام، وضرب الأمثال والشواهد والتلاعب بالمعاني، والميل إلى الإيقاع في تركيب العبارات، وما إلى ذلك مما يستفز المشاعر ويستهوي القلوب. على أن أعلاها قدراً ما التزم جادة البيان السليم، وجودة المنطق، وكان قائماً على نصاعة التفكير وجمال التصوير[2].

وإذا قلنا ترسل خطابي فنحن نعني ما أنشأه مكتوباً بروح خطابية، وقد أتت بكل حق استعراضاً سوياً شائعاً، يجمع بين الإيجاز ودقة الملاحظة وخفة الروح.

---

(١) الصناعتين، ص ١٠٢ .

(٢) إيناس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها، ص ٣٩٩ .

وتعتبر (مملكة البيان) أفضل مجموعة ترسُّلية له على الإطلاق، والذي يراجعها يجده ضمنها شيئاً كثيراً من الأدب واللغة والفكر.

ويتسم الترسل الأدبي عند عائض القرني بثلاث سمات:

السمة الأولى: جميع رسائله وعظية دينية اعتمد فيها على الأسلوب السهل الذي يخاطب الوجدان ويغوص في أعماق النفس فيهزها هزاً بضرب الأمثال والعمد إلى السجع مع الاقتباس من آيات القرآن الكريم والحديث الشريف.

وهي سمة تحمل الهدف نفسه الذي تحمله بقية فنونه الأدبية الأخرى من نصرة للحق وأهله، وبغض لأهل الباطل والتشنيع بهم وبمخالفاتهم.

السمة الثانية: أكثر رسائله يغلب عليها الشرح والجدل والاستطراد الذي مُلئ أدباً وكياسة.

السمة الثالثة: رسائله تسودها النزعة الخطابية التي عرف بها.

obeikandl.com

نمـــوذج
لرسائل عـــائض القرني

ليت للبراق عيناً:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ؛ أما بعد:

لهذه الرسالة مغامرة فكرية فائقة الأداء، رائعة العرض..

مهمة هذا الكتاب الوصول إلى غور الوجدان، حيث مياه اليقين الدافئة.

فهو سلوة للمحرومين الذين انقطعت بهم الحبال، وخيم عليهم اليأس، وضربوا بعصا الندم.

وهو عزاء للمنكوبين الذين ادلهمت عليهم ليالي الهموم، بكواكب بطئية حائرة من الهم واليأس والفزع واللوعة، وانعقدت عليهم سحب المصائب، فهم هناك وحدهم يبكون ويندبون ويجأرون.

فهو رسالة لليتيم الباكي المتلفع بأسمائه، حيث الهاجرة والجوع والإرجاف والضياع.

إلى الذين لا يملكون غذاء، ولا كساء، ولا ماء، ولا دواء..أنثر الكلمات بين يديهم في طبق من الحياء، والخجل، أن تكون مشاركة المحب جملاً من كلام أو حرفاً من حديث.

ليت للبراق عيناً ترى صرعا القضاء والقدر المحتوم من رب العالمين وهم راضون صابرون محتسبون، يرون أن اختيار الله العظيم لهم خير من اختيارهم لأنفسهم، فهم أبداً في حالة التسليم والإذعان والخضوع.

obeikandl.com

ليت للبراق عيناً ترى المنكوبين من عباد الله المؤمنين يحتسبون الثواب، ويطلبون الأجر، ويفرحون بحط الخطايا ونسف السيئات.

ليت للبراق عيناً ترى أن في الأمة المحمدية المعطاءة الودودة الولودة أناساً كادوا أن يشابهوا الملائكة طهراً وعفافاً، اتخذ منهم شهداء، ضربت جماجمهم في حومة الوغى، وتدفقت دماؤهم في المعترك، وشهداء هناك حيث رفعت المشانق ونصبت لهم الزنزانات والفلكات، ولسان الحال يقول لكل سفاك: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾.

ليت للبراق عيناً ترى أشباه يحيى بن زكريا مذبوحين على الطريق في سبيل حب من يستحق كل الحب والشوق والود جل اسمه.

وأحفاد عمر في المحاريب تكسر الرماح في ظهورهم، وهم راكعون ساجدون منيبون، يمزقون من أجل الكلمة وعلى حساب الميثاق وفي ذكرى العهد.

ليت للبراق عيناً ترى آلاف القمصان تشبه قميص عثمان، كلها دماء هنا وهناك، وكل شهيد جاؤوا على قميصه بدم صدق.

الدم ثائر هادر يروي قصة فداء هؤلاء في سبيل المبدأ الطاهر، والمسيرة المقدسة، والمثل العليا الربانية.

ليت للبراق عيناً ترى الصابرين على ألم الملح الجارف، وعلى اليأس الملتف، يترقبون أفق الظن الحسن وطالع الفأل وكتائب الفخر.

ليت للبراق عيناً ترى علياً في محراب القداسة يثعب جبينه دماً زكياً فائحاً بطيب الشهادة، مسرعاً إلى الله: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾.

ليت للبراق عيناً ترى أحمد بن حنبل يجلد فما أنَّ، ويضرب فما يصيح، ويحبس فلا ييأس.

فهو في هدوء الجبل الصامت، وفي رزانة الدهر الساكن، وفي ثبات القلعة الرابضة.

استعلاء على تفاهات الدنيا ، وصعود إلى أوج الفضائل، وتصميم على حفظ المنهاج، وتوقد في نيل الأماني.

ليت للبراق عيناً ترى خبيب بن عدي وآلافاً مثله وهو يرفع على خشبة الفناء.

فهتف الضمير الحي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا جلجلة الحق أكبر من زيف الباطل، وإذا اندفاع اليقين أعظم من زخم الزيف والكذب.

ليت للبراق عيناً ترى العبد الصالح عبدالله بن عمرو الأنصاري يُقطَّع في جهاد أعداء ربه تقطيعاً، ويمَزَّق تمزيقاً، فكان الجزاء: مكالمة حية بلا ترجمان مع الرحمن، وحديثاً خاصاً شائقاً مع رب المغارب والمشارق.

لماذا....؟ لأنه صدق في موطن تسقط فيه الجماجم، وتقع فيه الأنفس، ويهرب منه الجبان، ويذعر من هوله الموت.

ليت للبراق عيناً ترى أصحاب الحديث يحملون المحابر يجوبون الديار، ويقطعون القفار، ويركبون البحار.

يأكلهم الجوع، ويحوسهم الضما، ويلفهم الليل الرهيب، وتحرق مواضع سجودهم الرمضاء، ومع ذلك يواصلون العطاء، والبذل، والاستفادة، والتحصيل والنفع.

يطربون بكلمة حدثنا طرب الواله الواجد لنغمة حبيبه.

ويشتاقون لسماع المعصوم اشتياق النوق الورادة لخمس ليال على غدير صاف عذب رقراق.

ليت للبراق عيناً ترى شيخنا ابن تيمية في القلعة وهو يُسبِّح ربه، ويهتف في زنزانات السجناء بكلمات التوحيد الملتهبة الرائعة المهيمنة.

محبوس كأنه في نزهة، مسجون كأنه في عرس، مقيد وكأنه رحالة على ضفاف نهر.

ابن تيمية إيمان يشق طريقه إلى سراديب النفوس، وعلم يغرق فيه أدعياء الحكمة والمتطفلون على التفقه والاستنباط. وهمة تمر من السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء.

ليت للبراق عيناً ترى ابن المبارك وهو يروي للعالم قصة العالم المجاهد الزاهد العابد المثابر المتواضع.

ابن المبارك المولى الذي جعل الأحرار يتمنون وده، والسلاطين يخطبون لقاءه.

ابن المبارك الذي علم الناس أن العالم كلية عالمية من المواهب والقدرات، وخصال حميدة كالأعياد في الدهر، وأخلاق جميلة كنجوم السماء، وترجمة لنصوص الوحي يقرؤها العالم والأمي في شخص ناطق سميع بصير.

ليت للبراق عيناً ترى عقبة بن نافع وهو يتحدى المحيط المتلاطم، ويهدد البحر المتماوج، بتوحيده وبقلبه وبإبائه وبصموده: يا ماء، والله لو أعلم أن وراءك أرض لخضتك بفرسي هذا لأرفع لا إله إلا الله.

ليت للبراق عيناً ترى مالك بن أنس إمام دار الهجرة وهو يعلم الحديث الشريف في الروضة الشريفة ستين سنة يلقن الحكمة، ويعلم الأمة الخير، ويحيي القلوب، ويقمع البدع، ويسخر الشياطين، ويرفع معالم السنن، وينشئ أجيالاً سنية سلفية أحمدية.

ليت للبراق عيناً ترى سعيداً بن المسيب إمام التابعين، لم تفته تكبيرة الإحرام في جماعة ستين سنة، يضرب مئة سوط؛ لأنه لم يداهن ولم يراهن، بل سطع ولمع، يضرب كما تضرب غرائب الإبل؛ لأن كيانه يقول: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾.

obeikandl.com

المقالـــــة

بدأ عـائض القـرني خطيـبـاً يسكب في قلوبنا الحيـاة والتـأثيـر والإقناع، خطيباً نُسلّم له نفوسنا ليصقلها ويطوعها ويهديها إلى سواء السبيل.

فكان بلسانه يستولي على المشاعـر ويتملك العواطف، ويجذب النفوس، ثم تجلى شاعراً يبني بكلماته قصة الطموح، ولحن الخلود.

وهذه ثقافته الخصبة المؤاتية قد أتاحت له اليوم أن يسهم في فن آخر من فنون القول العـربـي الذي سـخـره لروح الدعـوة، ألا وهي (المقـالـة) تلك الكلمة المؤثرة التي تبعث في الشعوب الحياة.

ومقـالاته منذ البداية تتسم بروعة البيـان، ووفرة الذوق اللغوي بخـلاف بداياته فـي الخطابة والشـعـر، فـمقـالاته كتـبت مؤخـرًا عن فتـرة التهـذيب الثقافي والعلمي، فهو اليوم يكتب مقالاته وهو ثري المعلومات اللغوية، بحفظ القـرآن الكريم، والأحـاديث النـبوية، ومواقف الأعـلام في التـاريخ الإسـلامي، وحفظ أكبر قـدر من شـعـر القدامـى والمحدثين، وخطب العرب ومحـاوراتهم في الجـاهليـة والإسـلام، كمـا صقـل مواهبـه بالاستـفـادة مـن علوم العصـر وتجارب الشرقيين والغربيين.

فأتت مقالاته وكأنها رضعت بلاغة سـحبان، وكتابة الجاحظ وابن العميد، وذكاء إياس، وبيان ابن عباس، وشعر المتنبي.

obeikandl.com

ولقد برزت لمقالاته خمس سمات هي:

١- وردت مقالاته سهلة مختصرة، فهي أكثر اقتصاداً على ذهن القارئ، وقد نص على ذلك بقوله في مقالته عصر السرعة (هكذا حدثنا الزمان -٦٠):

«من أراد أن يؤلف فليختصر، وليسهل الكلام للناس، لأن البلاغة هي أن يفهمك من تكلمه أو تكتب له، لا نريد تعقيداً لفظياً ولا نريد كتابة تحتاج عند قراءتها إلى مطالعة القاموس، نريد أسلوباً واضحاً مشرقاً سهلاً يفهمه الحاضر والباد؛ ولذلك اجتهدت في هذه المقالات أن تكون سهلة مفهومة، وأعرضت عن التدبيج وتزويق العبارة وتحبير الكلام؛ لأنني أريد أن يفهمني أكبر عدد من الناس، وأن البليغ حقاً هو من يفهم كلامه العامة والعلماء، أما الإغراب وإيراد وحشي الكلام والتفنن في تصعيب العبارة فهذا من قلة الإدراك وبلادة الحس وجفاف الذوق، نحن في عصر السرعة، الناس يخطفون كل شيء، فإذا أردت أن تكتب للناس مئة سطر فاختصرها في عشرة سطور وسهلها ويسرها ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾.

٢- ترد مقالاته غالباً مستندة في مطلعها على أحداث التاريخ، يقول في مقالة الولاية التي لا تقبل العزل (هكذا حدثنا الزمان - ص٦٣):

«ذكر السبكي في طبقات الشافعية في ترجمة الإمام حامد الإسفراييني المتوفى سنة ٤٠٦هـ أنه وقع من الخليفة العباسي أمير المؤمنين أمر وأحب أن يكتب له الشيخ أبو حامد: أعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولاينها الله تعالى، وأنا أقدر أن أكتب رقعة إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك.

قلت: هذه نهاية العزة، وعلو المرتبة، فالعلم هبة الله وعطية منه لا يعزل صحابها؛ لأن العلم في صدره، والتقوى تاج على رأسه، وعلماء الأمة خلدوا بعلمهم لا بمناصبهم، فأي منصب كان لسعيد بن المسيب والحسن البصري وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وابن قدامة وابن تيمية، بل وكانوا يجبرون على الولاية فيرفضون ويسجنون ويهددون ليتولوا منصباً فيأبون، فأبقى الله ذكرهم، وسطر مدحهم، وخلد علمهم، ونفع بهم، بل وصل الحال كما تقدم لأبي حامد إلى أن يهدد الخليفة بعزله، وما ذاك إلا لمعرفته قيمة ما يحمل من العلم، وثمن ما عنده من المعرفة، نسأل الله الأعظم أن يصلحنا كما أصلحهم، وأن ينفعنا بعلمنا وينفع به غيرنا، وأن يجعله سبباً لرضوانه ووسيلة إلى رحمته».

٣- كثير من مقالاته تخضع لتجربته الشخصية في الحياة خصوصًا ما يتعلق بتجربته في القراءة.. والدعوة.. والخطابة..

وفي هذا النوع من المقالات تتضح مطالعته في الفكر المُعرّب ومدى الاستفادة من مناهج المفكرين غير العرب. وهذه أمثلة على أسلوبه الكتابي:

من كتاباته في مقال بعنوان لا تحرص على التصدر زمن الشباب (هكذا حدثنا الزمان - ص ٢٠٩-٢١٠):

«الشباب مهما رزق من العقل والعلم فلا يزال عنده من العجلة والاندفاع وعدم تقدير العواقب ما يوجب عليه الانتظار والصبر وعدم الاستعجال على التصدر، فقد وجدت أذكياء نابغين يحفظون العلم حفظاً، ولكنهم وقعوا في

أخطاء لأنهم شباب، ورأيت من أحب الإمامة والخطابة والتدريس وغلط في مواقف لأنهم شباب.

وكان سلفنا يطلبون العلم في شبابهم ويتأدبون، فإذا خطهم الشيب تصدروا وعلموا غيرهم، وقد بعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام في الأربعين من أعمارهم وهو سن الرشد العقلي وتمام التجربة وكمال الرشد وذهاب الطيش وغروب العجلة وضبط الاندفاع».

ومن كتاباته في مقال بعنوان فن الحفظ (هكذا حدثنا الزمان - ص٢١٠-٢١١):

«من أراد الحفظ فعليه بكثرة التكرار للمحفوظ، وإعادة النظر فيما يقرأ بين الفينة والأخرى، والتأمل والتدبر والوقوف عليه عبارة عبارة ليطبع في الذهن، وينسخ في الذاكرة، فإن الكتابة في الذهن على حسب التكرار كمن يكتب بقلم واضح أو ضعيف، ومن أعظم الأصول تقليل المحفوظ والمداومة، فإنه لا عالم إلا حافظ، وزينة الأديب حفظه، ولا أشرف من الحفظ، وعلم لا تدخل به الحمام ليس بعلم، وإنما يعظم العالم بجلال ما يعي وكثرة ما يحفظ وعظيم ما يحوي، أما جمع الكتب والنظر فيها فكل ذلك يحسنه حتى الباعة والوراقون والخرازون.

ومن كتاباته في مقال بعنوان سياسة العلم (هكذا حدثنا الزمان - ص٦٨):

«معاندة السلطان من أشد المحن وأضرها على العالم، فإن هذه المعاندة تمنع الناس من الانتفاع بعلمه، ويكون العالم مقيداً محصوراً عن نشر علمه، وبث فوائده، وهذا وأد خفي للعلم، وفي تعلم سياسة العلم والنفع، والحكمة موهبة ربانية».

٤- الشيخ في مقالاته كعادته في الشعر والخطابة ينفذ بالقارئ المعاصر إلي زوايا إسلامية عديدة لم تكن تخطر على باله من قبل.

٥- نهج أيضاً في مقالاته نهجه في الشعر والخطابة، فقد وظفها لخدمة رسالته في ميدان الإصلاح الاجتماعي، وهو نهج مستمد من استقامة أدبه وأصالة فكره.

obeikandl.com

مختـــــارات
لأسلوبـــه الكتابـي المقالـي

وعظ في غير محله:

الذي يغلظ على السلطان مـثل الذي يمازح الأسـد، وبعض الوعـاظ والدعاة سمعوا أن الفضيل بن عياض وعظ هارون الرشيد، وأن سفيان الثوري وعظ أبا جعفـر المنصـور فـأرادوا أن يفـعلوا فـعلهم مع سـلاطين عصرهم، ونسوا أنهم ليسوا كأبي جعفر المنصور، وهارون الرشيد، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

والسلطان لا يقبل الموعظة خاصة أمام الناس؛ لأن في ذلك كسراً لجاهه، ولا يمكن أن تخلو به. وسمعنا من أراد أن يعظ السلطان فمدحه وأثنى عليه ومجده، ثم لمح من بعيد لشيء من النصح فذهب مر الموعظة بحلوها ولن ينجو كفافاً، ومنهم من خالط السلطان بقصد نصحه وآخر النصيحة بزعمه حتى تجري المعرفة والصداقة، ثم صار من البطانة ونسي النصيحة والموعظة.. والحمد لله على كل حال، فلا تتعب نفسك، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، واعلم أن واعظ عصرنا ينقصه الإخلاص أو العلم أو الحكمة أو معرفة طبيعة السلطان فيقع في ورطة، ولا يغرنك قول بعض الوعاظ: إنهم وعظوا السلطان فقبل منهم، هذا لأنه هز رأسه أثناء كلامهم فظنوه قبل ما قالوا، واعلم أن السلاطين عندهم في الغالب خداع ومكر، وبعد غور، فيتوهم الواعظ البسيط أنه قد خلب ألبابهم بكلامه، وهذا من تلبيس إبليس، وما رأينا عالماً خالط وأصبح من بطانته إلا ذهب عنه نور العلم، وهيبة الشرع، وجلالة الورع، والتاريخ شاهد بذلك.

obeikandl.com

السياســـة

أعاذنا الله وإياك، من ساس يسوس فهو سائس، فإن السياسة مازجت قلباً إلا أزعجته، وما خالطت عقلاً إلا أضعفته، تذهب بهاء العلم، ورونق النسك، لها سعار في القلب كداء الكلب في الجسم، وخمار على الذهن كسكار الخمر، من شرب منها شربة لم يجد ريح العافية.

السياسة قتلت الحسين، وصلبت ابن الزبير، وذبحت سعيد بن جبير.

وهي التي عطلت حلقات العلم، ودروس الوعي، وكتاتيب المعرفة.

السياسة كالحرباء لها كل يوم لون، وكالحية لينة الملمس قاتلة السم، وكالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، سرها: طلب الرياسة، وشهوة التصدر، ومرض الظهور، وظاهرها: إنقاذ الناس، وصلاح العالم، وإسعاد البشر.

من تجرد لها بلا تقوى من الله ورضوان نسي آخرته وباع دنياه ، وخسر حظه، وأضاع نصيبه، وأزهق روحه، وفقد رأسه.

السياسة المجردة من نور الوحي، وبرهان الشرع وسلطان الملة، من القول والغرور، وبهرج من النفاق، وزيف من الباطل، وركام من الكذب ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾.

السياسة بلا شريعة استباحة للدماء، ونهب للأموال، واستعباد للبشر ثلاث عورات لكم ؛ وهي فخ للأبرياء، ومصيدة للحمقى.

المفتون بها إن تتركه يلهث، وإن تحمل عليه يلهث، يسفك الدم بحجة حماية الديانة، ويسلب المال بحجة حفظ حقوق الناس، ويسترق البشر بحيلة جمع الكلمة.

كان الأبرار يفرون من السياسة وأبوابها والدنيا مقبلة والدهر مساعد، والعطاء جزل، والزمان في شبابه، يطلبون فيفرون، وتعرض لهم الرغائب فيأبون، فخلف من بعدهم خلف تزاحموا على أبوابها وهي مغلقة.

obeikandl.com

السجـن

السجن بيت الوحدة، وأخو القبر من الرضاع، شماتة للحاسد، ومناحة للصديق، يطوى العمر فيه طي السجل للكتب، تقف فيه عقارب الساعة، فكأن اليوم شهر، والشهر سنة، وكأن الشمس شدت بيذبل، في السجن يركد الخاطر ركود حائطي السجن، وتذوب النفس، وتلين العريكة وتنقطع الآمال. في الحبس تذاق حياة البرزخ، كل شيء قديم، لا جديد إلا وجه السجان إذا استلم نوبته، ولا أخبار إلا رؤى المنام، ولا براهين إلا أماني وإن هم إلا يظنون، يقول أحد المسجونين:

إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة

فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ونفرح بالرؤيا فجل حديثنا

إذا ما تحدثنا الحديث عن الرؤيا

السجن يستحث الشيب ويجلب الهرم، ويساوم على النفس في سوق الموت، السجين لا حي فيدعى، ولا ميت فينعى، ولا مريض فيعاد، ولا صحيح فيزار.

ولكن الحبس أيضاً مدرسة للصبر، ومجلبة الأجر، وكتاتيب للتجارب، فيه تغرر الفكرة، وتدر العبرة، وتقلم أظفار الشهوات، وتباد خضراء المعاصي.

obeikandl.com

في السجن تعرف الحياة كما هي، وتنزل النفس منزلتها، فتجتث فيه شجرة الكبر، وتحرق فيه أسمال الرياء، وتظهر فيه زهادة المال، خبث الحديد، وكي للروح بميسم القدرة، يحرق غدد الغرور، وفي الحبس تتسابق الدموع الصادقة لتروى خدود اللوعة، وأجفان الانتظار، ولسان الحال يقول: ذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله.

obeikandl.com

الحـــب

الحب ماء الحياة، وغذاء الروح، وقوت النفس. تعكف الناقة على حورها بالحب، ويرضع ثدي أمه بالحب، وتبني الحمامة عشها بالحب، بالحب تشرق الوجوه، وتبتسم الشفاه، وتتألق العيون، بالحب يقع العناق والضم، والوصال، والحنان، والعطف، الحب قاض في محكمة الدنيا، يحكم للأحباب ولو جار.

المحب عذابه عذب، واستشهاده شهد، لأنه محب.

أحـــــــبك لا تســـأل لمـــاذا لأنـــني

أحـــــبك هذا الحب رأيي و مـــــذهبي

بالحب يثور النائم من لحافه الدافئ، وفراشه الوثير لصلاة الفجر، بالحب يتقدم المبارز إلى الموت مستثقلاً الحياة، بالحب تدمع العين، ويحزن القلب، ولا يقال إلا ما يرضي الرب.

الحب كالكهرباء، في التيار يلمس الأسلاك فإذا النور، ويصل الأجسام، فإذا الدفء، ويباشر المادة فإذا الإشعاع، الحب كالجاذبية به يتحرك الفلك وتتصاحب الكواكب، وتتألف المجموعة الشمسية لا حياة إلا بحب، لا عيش إلا بحب، لا بقاء إلا بحب، إذا أحببت شممت عطر الزهر، و لمست لين الحرير، وذقت حلاوة العسل، ووجدت برد العافية، وحصلت أشرف العلوم، و عرفت أسرار الأشياء.

obeikandl.com

دراســـة التاريخ

إن التاريخ: حسب قارئه، فإن قــرأه للمتعة و التسلية فهــو حكايات ومـغـامـرات وقصص رائعة، وإن قـرأه بإمـعـان لأخـذ العـبـرة و طلب العظة والغوص على الحقيقة وكشف السنة الربانية، فهو جامعة كبرى.

وفي التاريخ الاعتبار بمصارع الغابرين وأخذ الحيطة من خطأ ميدان العبر ومسرح للروح في ساحة الدنيا، وجولة للفكر في فضاء الدهر ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾.

والتاريخ مطرقة إنذار للأمم، وصيحة بعث للأجيال، و سوط تأديب للشعوب، والتاريخ لسان ناطق بالثناء والهجاء لمن عبره من عالم و سلطان، وقائد وثري، ومؤلف ووزير، وخطيب وشاعر. ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾.

obeikandl.com

الحاســـد

الحاسد لو قدمت له حذاءه، و أحضرت له طعامه، وناولته شرابه، وألبسته ثوبه، و هيأت له و ضوءه، و فرشت له بساطه، وكنست له بيته، فإنك لا تزال عدوه أبداً ؛ لأن سبب العداوة لازال فيك، وهو فضلك أو علمك أو أدبك أو مالك أو منصبك، فكيف تطلب الصلح معه وأنت لم تتب من مواهبك؟

والحاسد ينظر متى تتعثر، ويتحرى متى تسقط، ويتمنى متى تهوي.

أحسن أيامه يوم تمرض، أجل لياليه يوم تفتقر، و أسعد ساعاته يوم تنكب، و أحب وقت لديه يوم يراك مهموماً مغموماً حزيناً منكسراً، و أتعس لحظة عنده إذا اغتنيت، و أفظع خبر عنده إذا علوت، و أشد كارهة عليه إذا ارتقيت، ضحكك بكاء له، و عيدك مأتم له، و نجاحك فشل لديه، ينسى كل شيء عنك إلا الهفوات، ويغفل عن كل أمر فيك إلا الزلات، خطؤك الصغير عنده أكبر من جبل أحد، و ذنبك الحقير لديه أثقل من كهلان. لو كنت أفصح من سحبان، فأنت عنده أعيى من باقل، ولو كنت أسخى من حاتم فأنت لدية أبخل من مادر، ولو كنت أعقل من الشافعي فهو يراك أحمق من هبنقة، الذي يمدحك عنده كذاب، والذي يثني عليك لديه منافق، والذي يذب عنك في مجلسه ثقيل حقير، يصدِّق من يسبك، ويحب من يبغضك، و يقرب من يعاديك، ويساعد من يكرهك ويجافيك، الأبيض في عينك سواد عنده، والنهار في نظرك ليل في نظره، لا تجعله حكماً بينك

وبين الآخرين فيحكم عليك قبل سماع الدعوى و حضور البينة، ولا تطلعه على سرك فأكبر همه أن يذاع ويشاع، و يحفظ عليك الزلة ليوم الحاجة، ويسجل عليك الغلطة ليوم الفاقة، لا حيلة فيه إلا العزلة عنه، والفرار عنه، والاختفاء عن نظره والبعد عن بيته، و الانزواء عن مكانه.

أنت الذي أمرضه و أسقمه، أنت الذي أسهره و أضناه، أنت الذي جلب له همه، وحزنه وتعبه ووصبه، و هو الظالم في صورة مظلوم، لكن يكفيك ما هو فيه من غصص، و ما يعايشه من آلام، وما يعالجه من أحزان، وما يذوقه من ويلات:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني
فلا أعاتبه صفحاً و إهوانا
كذاك قد كنت في أهلي وفي وطني
إن النفيس غريب حيثما كانا
محسد الفضل مكذوب على أثري
أغتاب سراً ويثني في إعلانا

مـــع الكُتـــَّاب

ما قرأت لأحد من المتقدمين و المتأخرين أجمل بياناً و أندى لفظاً. و أعمق معنى من الجاحظ، إنه نادرة الزمان في صياغة الحرف، وأعجوبة الدهر في نسج الكلام، غير أنه رقيق دين، صاحب مضادات و أوهام وشكوك، أما أحمد حسن الزيات من المتأخرين فكتاباته ندية باهرة خلابة، و ما أروع تقابل الفواصل، واستقلال المقاطع، واختيار الجمل.

و أما طه حسين فسلس العبارة مستطرد النفس، حالم الخيال، لكن الرجل صريع الشبهات.

وأما العقاد فله من اسمه في أسلوبه نصيب، وكأن كلامه شعر الفرزدق قوة في جفاف، وعمق في يبس، و أما الرافعي فغاية في طول النفس، و ربما أغرب، وهو أمة وحده في هذا الفن.

وأما سيد قطب فبديع الإنشاء، ولكنه مسهب مكرر يعيد الجمل كثيراً.

و أما الطنطاوي فله سحر الجلال يدهش العقول، وهو قادر على استنزاف دمع العين، و حزن القلب بما يكتب، و هو عندي منقاد الخاطر، طلق البديهة، متدفق القلم.

و أما محمد الغزالي المعاصر فله قاموس خاص، فيه جلال و هيبة، وهو يجبر الذهن على التلفت، و إنه لحسن الإيقاع، رخيم العبارة.

و أبو الحسن الندوي له مدار في العبارات لا يتعداها مع الاهتمام بالتفخيم و التضخيم و التهويل، مع مسحة الروحانية الزاكية.

obeikandl.com

رسالة الرسول ﷺ

كان العالم قبل مبعثه ﷺ جيفة في حضن صنم، وجثة هامدة تحت أقدام وثنٍ، جباه معفرة للات والعزى، وأنوف راغمة لمناة الثالثة الأخرى، عرى في الأخلاق، ونكوص في الهمم، وانتحار في المبادئ، عقل مدفون تحت ركام الجهل ؛ بصيرة مطموسة بغبش التقليد والتبعية، فأراد الله بهذا العالم خيراً، منةً منه وفضلاً، وكرماً منه، فبعث محمد عليه الصلاة والسلام، فهو النبأ العظيم، والنبي الخاتم، والحدث الجلل، والقصة الكبرى، بعث عليه الصلاة والسلام ليرد كل شيء إلى أصله، وكل أمر إلى حقيقته، وكل نبأ إلى مستقره، فملأ القلب إيماناً، والعقل حكمة، والنفس يقيناً، والكون عدلاً، والدنيا رحمة، والأيام سلاماً، والليالي أمناً.

أصدق الناس لهجة، وأبرهم قلباً، وأشرحهم صدراً، وأعظمهم حلماً، وأسدهم رأياً، وأقواهم بصيرة، وأحسنهم هدياً، وأجملهم طريقة، وأنقاهم سريرة، وأبينهم خطاباً، وأثبتهم جناناً، وأسلمهم جانباً، وأرضاهم سجية، وأقومهم قيلاً، وأعدلهم حكماً، وأوصلهم رحماً، وأطهرهم عرضاً، وأكرمهم يداً، وأظهرهم حجة، وأمضاهم عزيمة، وأنبلهم سجية، وأعرقهم نسباً، وأفضلهم حسباً، وأوسطهم طريقة، وأوضحهم مذهباً، وأجلهم قدراً، وأعزهم فخراً.

كان الكون قبل رسالته هائماً في حلم الكرى، سادراً في خرافات الورى، العقول جامحة في هواها، والنفوس طائشة في مبتغاها، شطحات في الفكر، وكساح في المعرفة، وتشويه في الأخلاق والسلوك، وتخلف بهيمي

في الإرادات، وعوج ظاهر في المدارك، وسفه عابث في القيم، أمة قبل مبعثه مبعثرة، تصب فضول الخمر على رأس الصنم، وتذبح البنات بالحجج الواهيات، والعقل هائم، ووازع البصيرة نائم، والقلب خنس عليه الشيطان، والجسم في جنابة، لا وضوء ولا غسل ولا طهر ولا صلاة، ولا تسبيح، ولا تدبر ولا تفكر، ولا محاسبة، لا خشوع ولا دموع، لا توبة ولا إنابة، لا صلة ولا رحمة، لا علم ولا فهم، لا حج ولا جهاد، لا زكاة ولا قربة.

ضلال مبين، وغي ثخين، وعتو جارف.

ومع هذا الجدب في المعرفة، والأخلاق، والقيم، كان هناك فقر مدقع في المعيشة، فالجوع يلازم البطون ملازمة الغريم الشحيح، والعدم سكن البيوت سكون الفكرة في الضمير، يأكلون الميتة، ويتعرفون الجلود، ويمصون العظم ويلوكون الشجر.

ومع هذا الجدب كله، والفقر كله، اندثار في الأجسام، فالرؤوس شعث، والوجوه مغبرة، والأظفار ناتئة، والثياب وسخة، والشعور نافشة، والروائح كريهة، مع عبوس في المحيا، وكلوح في الوجه، وسوء في المعاملة، وفظاظة في الخلق، ويبس في الأدب، وضمور في السجايا، حتى طل هذا الفجر الزاهي، وسطع هذا النور الباهي، محمد ﷺ، فكأن الكون جرى في جسمه تيار فنفضه من أوله إلى آخره، ومن مشاش رأسه إلى أخمص قدميه، نفضه نفضاً قوياً، فنثر كل ذرة من الانحراف فيه، وأخرج كل قطرة آثمة منه، ودبت الحياة في جسم العالم الميت برسالته ﷺ، دبيب البرء في الجرح، والماء في العود، والندى في الورد، واستفاق العقل، وأشرفت الروح، وانجاب الظلام وانقشع، وتم فرح الأجيال في ليلة ميلاد النبوة، وفي عرس الرسالة الأكبر، وفي مهرجان الهدى العظيم المبارك، فلله الحمد أولاً وآخراً.

محمـــد ﷺ

خـاتم الـرسل وذروة الصـلاح، وصل السـمـاء بالأرض، والـدنيـا بـالآخـرة، بسيط في عظمته، سهل في هيبته، لا تراه إلا وتحبه، ولا تخالطه إلا وترتاح له، حجته القرآن، وقبلته الكعبة، ودينه الحنيفية، ومنهجه الوسط، ودعوته التوحيد، أتى ليضع الآصار والأغلال.

وبعث ليحطم الأوثان والأصنام، وأرسل للعالمين رحمة، وللكافرين حسرة، صاح في أذن الدنيا، فتهاوت على صوته أعمدة البغي، وانهارت بكلماته أبنية الظلم، عاش الفقر فتحلى بالصبر، وتذرع بالتحمل، فبين بسيرته ضآلة الدنيا وحقارتها، وعاش الغنى فشكر المنعم، وواسى الخلق، وعلَّم البرية فصول الجود، وملاحم البذل، سالم فكان ألطف من النسيم، وأرق من الحرير، وأندى من الطل، فطافت بكعبة جلاله القلوب، وسمعت في ميدان فضله الأرواح.

حارب فكانت حروبه لاستئصال جذور الفساد، وسحق قلاع الضلال، وإزهاق الباطل، ودفن الإلحاد في حفرة النسيان.

محمد اسم محبب إلى قلبي، دعوت الله أن لا أكون مدعياً في حب، أحبه وأحب من يحبه، ويذكره ويتابعه، أحب ألفاظه، وجمله وحديثه، وأحب مسجده ومصلاه ومحرابه، أحب سواكه وثيابه وعصاه، أحب سيفه ومنبره وجفنته، أحب أهله وقرابته وأصحابه، أحب رضاه وغضبه، ونومه ويقظته، وحله وسفره، لا يستحق حبي من البشر إلا هو، ولا يملؤ قلبي من الناس

obeikandl.com

سواه، ولا يبرد مشاعري من الخليقة غيره، ليس لأحد من البرية علي منة أعظم من منته، ولا في عنقي لأحد يد أعظم من يده البيضاء، به هداني ربي، ومنه علمني مولاي، وبه كان اقتدائي، وإليه انتهى إعجابي، أصلي فأجتهد أن توافق صلاتي صلاته، وهيهات، لأنه يقول: «**صلو كما رأيتموني أصلي**» أحج فأحرص أن أتابع صفة حجه، لأنة يقول: «**خذوا عني مناسككم**».

أعيش وسيرته أمام عيني، وفي خلدي، لأن الله يقول: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾.

obeikandi.com

المقامـــات

المقامة بالفتح في لسان العرب: المجلس والجماعة من الناس، وفي شرح القاموس: المجلس، ومقامات الناس: مجالسهم، ومن المجاز المقامة: القوم يجتمعون في المجلس، ومنه قول لبيد:

ومـــقـــامـــة غلب الرقـــاب كـــأنهم

جن لدى باب الحـــصـــيـــر قـــيـــام

والجمع مقامات وأنشد ابن بري لزهير:

وفـــيـــهـم مـــقـــامـــات حـــســـان وجـــوههم

وأندية ينتـــــابهـــــا القـــول والفـــــعل

ووردت كلمة مقامات عند الجاحظ بمعنى محاضرات.

وقد ترجمت كلمة مقامات إلى الإنجليزية بمعنى assemblies ويقول تشنري chnery مترجم مقامات الحريري: وقد سميت المقامات بهذا الاسم لأن بطلها يظهر دائماً في مجمع من الغرباء يدهشهم ببلاغته.

ومهما يكن من أمر اللفظة وما احتملته من معان مختلفة ومدلولات متباينة في بعض الأحيان، فهي تسمية متوائمة كل المواءمة لهذا الفن من فنون الكتابة أو القصة[1].

والمقامات بوضعها الراهن إنما هي عربية بداية وأصلاً وصناعة وإنشاء وأشهرها: مقامات الهمذاني بشرح محمد محيي الدين، والحريري بشرح

---

(١) مصطفى الشكعة، في كتابه بديع الزمان الهمداني، ص ٣٠٦ .

obeikandl.com

القيسي في خمسة مجلدات ، ومقامات السيوطي، وحافظ إبراهيم في ليالي سطيح، ومحمد المويلحي.

مقامات القرني:

وإذا عرفنا أن فكرة إنشاء المقامات عند بديع الزمان قد تبلورت في مخيلته نتيجة لأمور كثيرة وفكر متعددة، منها هيكل الحديث عند ابن دريد، أو كما ورد في رأي chenery مترجم مقامات الحريري أن أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان والهستوباداسا (Histopadadasa) في اللغة السنسكريتية ثم البهلوية قد أوحت إلى بديع الزمان بفكرته[١] اتضح لنا أن لكل عمل مصدر وفكرة، ومقامات الشيخ عائض القرني وإن أتت على طريقة الهمذاني والحريري فحقيق بنا أن نبين أن للشيخ مصدر من أعماله سبق إنشاء المقامات بعشر سنوات، كان عبارة عن رسالة كتبها في أبها بعنوان (مصارع العشاق) وألقاها محاضرة نشرت في جزأين، كانت من أمتع محاضراته وأبلغ رسائله على الإطلاق.

أما فكرة إنشاء المقامات عند عائض القرني فقد نص عليها في مقدمة المقامات بقوله (مقامات القرني - ص ٩):

«فقد أشار علي الشيخ الأريب، والأديب، الدكتور أحمد بن علي القرني الأستاذ بالجامعة الإسلامية بكتابة مقامات، هي على الفضل علامات، فقلت له: صاحب ذلك قد مات، ولم يبق إلا حاسد وشمات.

---

(١) بديع الزمان الهمداني لمصطفى الشكعة، ص ٣١٥ .

فذكرني بشريط (مصارع العشاق)، وقال: كل لمثله مشتاق، فإنه للقلوب ترياق، وليس لك عذر ولو التفت الساق بالساق، وأحضر لي من حرصه الدفاتر، والخاطر قبل مجيئه فاتر، فأجلت تفكيري، وقد اشتعل في ليل رأسي صبح نذيري، وقد سبقني لهذا الهمداني والحريري، ولكن على الله المعول، وكما قال الأول:

«ولو قبل مبكاها بكيت صبابة

لكنت شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا

بكاها فكان الفضل للمتقدم»

شخصيات المقامات:

نهج عائض القرني في مقاماته نهج المتقدمين فقد اخترع مجموعة أبطال لمقاماته هم:

عطاء الله السمرقندي الذي استضافه خيالاً في المقامة الحديثية التي استهلها بقوله: «جاءني عطاء الله السمر قندي، فبات عندي، وكان أحد المحدثين، ويكره المحدثين في الدين، فقلنا: أيها الإمام، عليك السلام: الوقت حثيث، فحدثنا عن علم الحديث، فتأوه ثم قال: مات حفاظه، فكادت تنسى ألفاظه، وأهل الحديث هم الركب الأخيار».

ومنهم: علي بن عمران الذي نصبه محدثاً عن التاريخ ثم أخذ في مسألته كثيراً حتى بناء مقامته السلطانية كاملة.

ومنهم: عبدالله بن آدم الذي يقول على لسانه: « قال عبدالله بن آدم: حاورت الشيطان الرجيم، في الليل البهيم، فلما سمعت أذان الفجر أردت الذهاب إلى المسجد، فقال لي: عليك ليل طويل فارقد.

قلت: أخاف أن تفوتني الفريضة.

قال: الأوقات طويلة عريضة...»

ومنهم عمرو بن كلثوم، ومحمود بن أنس، وأبو ريال.. وليس من شك أن شخصيات المقامات جميعها كانت لأشخاص لا وجود لهم.

منهجه في إنشاء المقامات:

لقد نص عائض القرني على منهجه في المقامات التي بلغت ستاً و ستين مقامة و أفرد لذلك روضة كاملة جعلها بين يدي مقاماته يقول فيها (مقامات القرني - ص ١٣):

«لقد سبقني إلى هذا الفن أعلام، لهم في الحكمة أقدام، و في حومة البيان أعلام، و في طروس الفصاحة أقلام، فمنهم من خص بمقاماته الأدب، وثان في ذكر من ذهب، و ثالث في الحب، و رابع في الطب، أما أنا فأطلقت للقلم زمامه، و سرحت خطامه، و أزحت لثامه، ليكتب في فنون، ويسلّي في شجون، ذاكراً من سلف و من خلف، آخذاً من كل حكمة بطرف، وربما لمحت في المقال بعض الخيال، فلا تبدو لنا قسوة، فلي في ذلك أسوة، فإن الأمم استنطقت الجمادات، واستفهمت العجماوات، و قولت الكلام الحيوانات، و كلمت الأطلال، و نسبت الحديث إلى الشجر و التلال، تعريضاً و تلميحاً، و نسبة و تصريحاً.

و للعجم من ذلك ما يبهر، ككتب بزجرجمهر، و للروم في ذلك تآليف، وللهنود في هذا الفن تصانيف، و رأيت كتب اليونان، و صاحب الإيوان، والمانوية من أسلاف اليابان، كلها تنسب القول للحيوان، و تضيف و تنقل الخطاب بغير الإنسان، حباً للسلامة، و خوفاً من الندامة.

ثم جاء العرب، رواد الأداب، فأطربونا بكلام الحمام، في الحب و الغرام، و نقلوا في الأمالي، عتاب الطلل البالي، و أتحفونا بحوار الأطيار، و إظهار أسرار الديار، حتى أسندوا الأخبار للأشجار.

فيا صاحب الدراية، إن رأيت في هذه المقامات رواية، فقد قصدت النفع، و من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل، و قد أحلتك على ما سلف، ومن أحيل على مليء فليحتل.

وقد جانبت في هذه المقامات التجريح، سواء بالتلميح أو بالتصريح، ودبجتها بالثناء و المديح، لأن القول اللين، و الخلق الهين، يجلب الود، و يزيل الصد، و كسر القلوب غلط، و جرح المخاطب شطط، فهنا ملاينة لا مداهنة، وليس الخبر كالمعاينة، و مداراة لا مجاراة، ولي في هذه المقامات رسائل، ومن العلم مسائل.

وفيها عبر و سير، و أشعار و أخبار، و شجون و فنون، و فكاهات وملاطفات، و مشجيات و مبكيات، و محفوظات و عظات، فلا تحكم بمقامة على كل المقامات، بل طالع الجميع ليكون حكمك موات، فإن الروض ألوان، والشجر صنوان و غير صنوان، و التنويع مدعاة لإثارة الذهن البارد، و لن نصبر على طعام واحد.

وقد جانبت فيها الهمز و الغمز و اللمز، فلا مصلحة لنا في التعرض للأشخاص و الأجناس، أو تتبع عثرات الناس، بل نحن أحوج إلى جبر القلوب، و دفن العيوب، لأن مرد الكل إلى علام الغيوب، و من وجد نقصاً فليعف عنا، ومن غشنا فليس منا.

خذها من القلب لو أن الدجى صبغت

ثيابه بسناها المشرق الغالي

لصار نوراً كأن الشمس طلعتها

ولبدر ومضتها في حسن إجلالي

أسلوب المقامات:

يُعيد الدكتور مصطفى الشكعة الخلاف أو الفرق بين المقامات و الرسائل إلى الموضوع، فالرسائل فيها حرية وبساطة، وأما المقامات فلها سياق خاص وفكر متميز ومعان مقصودة، لا يكاد الكاتب يتحول عنها أو يتصرف فيها حتى لا تفسد الفكرة و يختل الموضوع.

و هذا تقارب نلمسه كثيراً فيما يكتبه عائض القرني، نثراً و لكن مقاماته انطبعت بفكر متميز ومعان مقصودة، ولعلنا نجمل خصائص وسمات أسلوبه الإنشائي في النقاط التالية:

أ - نلاحظ في مقامات عائض القرني أنه استهلها بآية من القرآن الكريم تناسب موضوع المقامة، أو حديث شريف من كلام المصطفى ﷺ، أو قول دارج مأثور.

فمن الأول: ما أورده في مقامة الحيل: قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. ومن الثاني: ما أورده في المقامة اليمانية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الإيمان يمان والحكمة يمانية»، أما المقولة الدارجة فمنها «واحرَّ قلباه يا نجد» التي صدر بها مقامته النجدية، و مثلها: «من لم يدخل بغداد لم يدخل الدنيا..» وهكذا.

ب - الإكثار من الشعر في جميع المقامات ومن يعرف علاقته بالشعر لا يعيب عليه ذلك..

لكن الملاحظ أن جميع المقامات توجت بالشعر، إما من إنشائه أو من أشعار العرب، بل لقد ختم المقامة النبوية بخمسةٍ و خمسين بيتاً من إنشائه. وفي مقامة الملك عبد العزيز يقول:

إذا كان نهرومنقذاً فهو أهوج
وإن كان تيتو قائداً فهو مدبر
ولينين سفاك وهتلر طائش
وصولات نابليون موت مقطر
وهذا حنيف مسلم ثابت الخطا
صلاة تؤدى أو كتاب يفسر
فلم يكن بعثياً يحارب ربه
ولا بلشفياً بالرسالة يكفر

ولكن على الإســـــلام مـــــد شـــــراعـــــه

وفي قـــارب المخـــتـــار يرســـو ويبـــحـــر

ج - أتت مقامات عائض القرني سجلاً لأخلاق المعاصرين وأحوال العصر الحديث.. يقول في المقامة الفضائية (مقامات القرني - ص ٢٧١):

«يا أصـحـاب قنوات الفـضـاء، يا من أعـرض عن الوحي و الرسـالة و القضاء، ما لكم تنشرون غسيلكم، و تجعلون الهوى سبيلكم، أين الكلمة الأمينة، و الفكرة الرصينة و المقولة الرزينة ؟ أين البيان الخلاب، و المنطق الجذاب ؟ لغة سوقية، و لهجة فوقية، ودعوة شقية، وأزياء و إغراء، و غثاء و هراء، و ادعاء و افتراء.

إن المشاهدين أسرى لما يعرض على هذه الشاشات. خشعت أبصارهم و سكتت أصواتهم و سكنت جوارحهم".

ويقول في مقامة العولمة (مقامات القرني - ص ٥٩):

«الحمد لله إن عولمة الأغبياء مرفوضة، وهي التي تمنح الامتياز للأبيض، و تدعو لحفظ كرامة الكلب، و تنادي بالرفق بالقطط، وتتبرأ من الأسود، وتطرد الفقراء، و تدوس على المستضعفين.

نريد عولمة تصنع سيارة لا دبابة، و قاطرة لا قنبلة، و ثلاجة لا صاروخاً، وتقدم وسائل الحياة لا أدوات الموت. لقد امتلأ العالم موتاً و دماراً وجوراً وبشاعة، نريد عالماً يملؤه الإيمان و العدل و السلام و الإحسان.

نريد عالماً ينتج قلماً ودفتراً وماسة وطبشورة، ولا نريد عالماً يزرع لغماً وبارود وقاذفة ومجنزرة، إن العالم ليس بحاجة إلى مادة (تي إن تي) وإلى

غاز الأعصاب والخردل. لا نريد عالم هتلر وموسولين ونبقورين وسلوبودان ملوسفتش وبرجنيف ويلتسن. بل نريد عالم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

لا نريد عالماً من أيامه دير ياسين وصبرا وشاتيلا وقانا والبوسنة والهرسك وقروزني وحلبجة».

ويقول في المقامة الأمريكية (مقامات القرني - ص ٥٤٩):

«أمريكا أفتك من هتلر وتيتو، خدعت العالم بالفيتو، من أطاعها فهو خادم مهين، ومن عصاها فهو شيطان لعين، تنظر إلى الأيتام وهم ينقلون، وتشهد اللاجئين وهم يقتلون لا تسأل عما تفعل وهم يسألون، غيرها من خيرها محروم، وهي ظالم في ثوب مظلوم، تريد أن تكون المنتصرة والعالم مهزوم».

ويقول في مقامة النحو (مقامات القرني - ص ٣٦١):

«إذا رأيت الصفات تتقدم الأسماء فاعلم أن المعاني هباء، فالمتأخرون يصفون البعض، عند العرض، فيقولون: علامة عصره، وفريد دهره، وقدوة الأنام، وعلم الأعلام. بينما كان السلف يقولون: أبو بكر و عمر، ولا يذكرون النعوت والسِّيَر؛ لأن المعارف لا تعرَّف، وكامل الأوصاف لا يوصف».

نموذج لمقامات عـــائض القرني

مقامـــة القلم

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

أنصت لميـــــمـــــيـــــة جـاءتك من أمـــم

مـــدادها مـن مـــــــعـــاني نـون والـقـلـم

واكـــــتـب بـه أحـــرف الـعـليـــــاء إن لـه

نـوراً من الحق يمحـــــو حـــــالـك الـظـلـم

يا أيها الذي جمع الحكم، أما سمعت نون والقلم، إن القلم شأنه عجيب، ونبـؤه غـريب، نحـيف الجسم، عظيم الاسم، جـمـيل الرسم، إن خط في القـــرطاس، أنصت له الناس، بالقلم تجـهـز الجنود، وترفع البنود، وتوثق العـقـود، وتحل العـهـود، بحـروفـه تقـضـي المحـاكم، وترد المظالم، وتقطع الجماجم، وتعقد المواسم، إن غضب فجّر الدماء، وأباد الأحياء، وأشعل حرباً شعـواء، منح المواهـب، وأعطى الرغـائب، وأهدى المناصب، من حـروفـه ينحى العسل، و الأسل، إن شـاء فـمداده سم الحيـات، وأم النكبـات، وسـبب البـلايا الموجـعـات، وإن أراد جـعل سطوره نوراً، وصيـرها سـروراً، ومـلأها حـبـوراً، ونمقها حسناً منشوراً، هو رسـول القرون الأول، وخـادم الدول، وحـافظ الملل والنحل، إذا سـال لعابه، كثر صوابه، وحضر جوابه، وتزاحم عبابه، لا تسمع له كلاماً، ولـكنه صار للحكمة إماماً، وللمعارف قائداً هـمـاماً، لفظه أغلى من اليـاقـوت، به خط الوحي في الملكوت، وهو الـذي أخـبـرنا بطالوت وجـالوت،

وهو أسحر هاروت و ماروت، مصيبة القلم أنه يذيع الأسرار، ولا يكتم الأخبار، ولا يقر له قرار، إذا تشجع ملأ الصفحات، وعبأ المجلدات، وبسط المختصرات، وإذا جبن ألغز وأوجز، وطلسم وأعجز، وإن تحامل همز، وغمز ونبر. كتب به اللوح المحفوظ، تخاطب به الملوك أهل الآفاق، وتقطع به الجبابرة الأعناق، ويخوف به الفساق، ويحذر به أهل النفاق والشقاق، وسوء الأخلاق، بالقلم يقضى الأمر، ويقع القتل والأسر، وينصب له الدهر، وتسطر وقائع العصر.

أمضى من الألسنة، لفظه ما أحسنه، يخبر عن من مات من ألف سنة، به تسطر كل سيئةٍ وحسنةٍ الله المستعان.

تصبح الأوراق به في حسن الرياض، ويُسوَّد به البياض، ويذب به عن الأعراض، وبه تشفى الصدور، من العلل والأمراض.

فتاك سفاك بتاك هتاك. كتوم غشوم ظلوم عزوم.

هو الذي كتب رسائل الصفاء، وهو دبج أسطر الوفاء، وهو سجل أخبار الخلفاء، دوَّن السؤال والجواب، والشكوى والعتاب، والخطأ والصواب، وما كنت تتلو من قبله من كتاب، بريشته تحل المعضلات، وتشرح المشكلات، وتصان المأثورات، وتبقى المحفوظات. يخطب بلا صوت، ويأكل بلا قوت، ويجمع بين الحياة والموت، به يرسم الهجر والوصل، والولاية والعزل، والجد والهزل.

به يقع العدل والحيف، والحق والزيف، وهو القاضي على السيف، به تنسخ المعرفة، وتنقل الفلسفة، وتخط الزخرفة. يسفسط ويقرمط، يتسج ويدبج، يهدم بكلمة بناء عام، ويلغي بجملة كيد أقوام، له غمغمة، وهمهمة، وتمتمة.

كم من عـقل قلقله، ومن قـصـر زلزلـه، ومن بال بلبله، ومن كـيـد أبطله. برسائله عرفت الأرض والسماء، وعلى رسمه خلدت آثار الحكماء، وبتصرفه سفكت الدماء، وعلى حركته نسجت مآثر العلماء.

أفصح من اللسان، وأحفظ من اللسان. إذا حملته الأصابع، فانتظر القوارع، وارتقب الفواجع. له أزيز كأزيز المرجل، ودبيب كدبيب الأرجل، وحصاد كحصاد المنجل. عار من اللباس، دقيق الرأس، قوي البأس، عظيم الأثر في الناس.

يشرب ولا يأكل، ويجيب ولا يسأل. إن عبأته مداداً أخال بياضك سواداً. إذا غلط غطش، وإذا احتد بطش. عقله مرهون، وخصمه مغبون، وعذابه غير مأمون.

إن خط بالأحمر قلت: هذا شفق، أو دم على ورق، وإن نسخ بالسواد، صار المداد كنون عيون العباد. وإن كتب بالأخضر قلت: هذه طلعة بستان، أو بهجة أفنان.

إذا سها رجع القهقري، وإذا شك مشى إلى الورى، له رأس بلا عينين، ولسان بلا شفتين، وصدر بلا يدين، لا يتكلم حتى يشبع، ولا يخطب حتى يرضع، ولا يسكت حتى يوضع، ولا يكتب حتى يقرع. إن سلطته على مختصر شرحه، أو على غامض أوضحه، أو على سر فضحه، أو على عاص نصحه.

إن كنت عربياً فهو أفصح من سحبان، وإن كنت أعجمياً صار أنطق من الهرمزان، يسمعك وليس له أذنان. إن نمت نام، وإن قمت قام، وإن جوعته صام، وإن أهملته هام.

متحذلق يقظ فإن أرسلته
أجرى لعاب رحيقه من صدره
بتار أعناق الأنام بلفظه
سلاب أفئدة الملوك بسحره

والقلم بيانك، وهو طوع بنانك، وهو حاضر الفكر، كثير الشكر، صاحب ذكر، إن حمله اللوذعي، وكتب به العبقري، سالت أودية بقدرها، وانبجست عين من حجرها، وإن صحبه البليد، وخط به الرعديد، كثر عثاره، وتبلد حماره، وحجب عيونه غباره، يوافق المزاج، في الاعوجاج، والثبات والارتجاج. مسدد إلا إذا غضب، ومليح إلا إذا حجب، إذا انتهى زاده، ونفد مداده، وقف جواده، هونوا عليه اللوم وأقلوا، فإنه لا يمل حتى تملوا، إن لقنته حكمة وعاها، وإن أرسلته إلى ذاكرةٍ أخرج منها ماءها ومرعاها، وهو الذي سطر الحكمة تسطيراً، فلم يغادر منها قليلاً ولا كثيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، وإن قصد أحداً بالأذى فلن تجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً، يرقص على نبضات قلبك، فإن أوقفت الإملاء نادى اذكرني عند ربك، فذكرك غذاؤه، وكفك حذاؤه، ومدادك ماؤه، وجيبك وعاؤه، يعرف طريق النجاة، وهو عظيم الجاه، يعذر ولو جئنا ببضاعة مزجاة، إن غلطت غلط، وإن جهلت ركب الشطط، لا يغفل الشكل والنقط.

صمت الخطباء وما صمت، وسكت الشعراء وما سكت، ومات الملوك ولم يمت، حذر به المصطفى الأكاسرة، وأنذر به القياصرة، وخوف به الجبابرة، صدر به قتل الحسين، وخط به خلع الأمين، وسطر به الوحي في طور

سينين، وروى لنا الجمل وصفين، يشعل الحرب ولا يحضرها، ويستودع الأسرار فينشرها، يتململ في كفك تململ السليم، ويتقلب تقلب السقيم، ويبكي بكاء اليتيم، خط به أفلاطون كتاب الجمهورية، وأقام به المعتصم وقعة عمورية، ونمق به ابن تيمية الوسيط، والحموية والتدمرية، نقل لنل سيرة ابن إسحاق، وحديث عبد الرزاق، وعجائب الآفاق، وأخبار العشاق. نقض الصعلوك، ودفع الشكوك، ونادم المملوك، يفهم بالإشارة، ويرسم العبارة، إن كتب به الأحمق تدفق، وإن كتب به الرجل الرشيد جاءك بالقول السديد، والعلم المجيد، والنقل الحمد.

يطير العلم من الرأس، فيقيده القلم في القرطاس، وإذا حمله الأمي قال لا مساس، مؤدب لا ينتقد، ومقلد لا يجتهد، يسهر بلا قيام، ويجوع بلا صيام، له كل يوم شجون، وعنده من الحكمة فنون، يخون الحفظ وهو لا يخون، صغير الجرم، كبير الجرم، واسمع أبا تمام يصف الأقلام في أبدع كلام:

لك القلم الأعلى الذي بشباته
تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه
وأري الجنا اشتارته أيد عواسل
له ريقةٌ طلٌ ولكن وقعها
بآثاره في الشرق والغرب وابل

فـــصـــيح إذا اســـتنطقـــتـــه وهـو راكـب

وأعـــجم إن خـــاطبـــتـــه وهـو راجل

إذا مـــا امـــتطى الخـــمس اللطاف وأفـــرغـت

عليـــه شـــعـــاب الفكر وهي حـــوافـل

أطـاعـــتـــه أطراف القـنـا وتـقـوضـت

لنجـــواه تقـــويض الخـــيـــام الجـــحـــافـل

إذا اســـتـــغـــزر الذهن الذكي وأقـــبلت

أعـــاليـــه في القـــرطاس وهي أســافل

وقـــد رفـــدته الحنصـــران وســددت

ثلاث نـواحـــيـــه الثـــلاث الأنـامل

رأيـت جليـــلاً شـــأنـه وهـو مـرهـف

ضـنـىً وســـمـــيـناً خطبـــه وهـو نـاحل